التفجيرات بين الفقه الإسلامي والفكر

الدكتور عبد الستار قاسم

21/تشرين أول/2001

ما زال الجدل حول مدى إسلامية التفجيرات في الولايات المتحدة قائما، هذا إن كانت التفجيرات من أعمال مسلمين. ويبدو من خلال ما يكتب من مقالات وما يبث من مقابلات تلفازية أن هناك شبه تسليم بأن ابن لادن وتنظيم القاعدة مسؤولان عن هذه التفجيرات. ومن الواضح أن عددا لا بأس به من الفقهاء المسلمين يوجهون لوما شديدا لابن لادن، بل انتقادات بأنه وضع المسلمين في مأزق وأساء لصورة الإسلام. أما هجوم السياسيين الرسميين على ابن لادن أشد قسوة، وهم يحشدون كل معارفهم الدينية ومعارف من معهم لإثبات أن ما تم خارج عن تعاليم الدين الإسلامي. ويشترك الأمريكيون في تبرئة الدين الإسلامي من تلك التفجيرات وإدانة القائمين عليها بأنهم يستعملون الدين الذي هو منهم براء.

تبين طريقة سير الجدل أن هناك محاولة متعمدة للانحراف عن حقائق تاريخية وسياسية لصالح فكرة هشة قد تكون علاقتها واهية جدا بما جرى في واشنطون ونيويورك. هناك اعتداء واضح على فكرة التحليل العلمي للقضية وتحويل المسألة إلى قضية لاهوتية تبتعد كثيرا عن الواقع العملي الذي تتفاعل ضمنه النشاطات بخيرها وشرها. وهذا عمل ليس غريبا في منطقتنا حيث اعتدنا على من يتم تجنيدهم من قبل أصحاب النفوذ والمصلحة يلوون ذراع القضايا الحساسة ليحولوها إلى مسائل تتغذى على وعي الإنسان وتطرد من داخله الرغبة في الوقوف على الحقائق وتغيير الأوضاع إلى ما هو أفضل.

لا توجد عبقرية البتة في الإفتاء بأن الإسلام ضد قتل الأبرياء وضد العدوان، وأنه مع المجادلة بالتي هي أحسن ومع العدل والتراحم والشعور مع الآخرين الواقعين تحت الظلم والمعاناة. ولا ذكاء في اكتشاف أن الأعمال الشريرة تولد الكراهية والبغضاء وتعطي صورا قبيحة عن مقترفها. هذا لا ينطبق على الإسلام فحسب وإنما يشمل أديانا وفلسفات كثيرة وعديدة. لم أجد، حسب معارفي المحدودة، دينا يدعو إلى قتل الأبرياء بمن فيهم النساء والأطفال سوى دين اليهود الموجودين حاليا. يأمر الكتاب المقدس الذي بين أيدي اليهود هؤلاء بقتل الأطفال والنساء والشيوخ. (انظر مثلا سفر يشوع وأخال أن ابن لادن وغيره لديه معرفة بأن الإسلام يحترم النفس ويعاقب على قتل النفس بغير حق بالقتل. يعرف المسلمون من خلال القرآن الكريم والسيرة النبوية والتاريخ الإسلامي ضرورة احترام النفوس والممتلكات والأعراض والمشاعر.

ولهذا لا أرى أن ابن لادن، إن كان هو المسؤول، قد خطط للتفجيرات التي حصلت من منطلق فقهي محدود بنص معزول عن بيئته وإنما من منطلق تاريخي وسياسي متصل بسيرة الولايات المتحدة مع العرب والمسلمين. لماذا لم تحصل التفجيرات ضد الأرجنتين أو زيمبابوي أو نيبال، ولماذا لا يتوقع أحد أحداثا مشابهة في هذه الدول؟ إذا كانت المسألة متعلقة فقط بفكرة دينية وملاحقة الكفر والكافرين فإن الأهداف ستكون متنوعة وكثيرة ومنتشرة في مختلف أنحاء العالم. لكن التوقعات حسب تحليل بؤر الصراع أن دولا محدودة يمكن أن تحل النقمة عليها من ضمنها إسرائيل وبريطانيا.

لا يحمل المسلمون أو العرب سيوفا في وجوه الأمم لمحاربتها ولا هم يستجمعون قواهم لمثل هذا الهدف. على العكس، حملت أمم في تاريخنا المعاصر السيوف في وجوه العرب والمسلمين وأعملتها في الرقاب، وما زالت تمعن بالقتل والسيطرة والتدمير. فتتت الدول الغربية

بلاد العرب والمسلمين ومزقت شعوبها عن تخطيط مسبق وتعمد، حتى بلاد الشام صغيرة المساحة لم تسلم من هذا التمزيق، واقتطعت أجزاء من هذه المنطقة وتلك من أجل أن تبقى النزاعات على الحدود قائمة، ونصبت على الناس حكاما يخدمون مصالحها، وأقامت الكيان الصهيوني ونهبت الثروات، الخ. ولا ننسى كيف أن الولايات المتحدة أشعلت الحرب في الأمس القريب بين العراق وإيران واتخذت السياسات المختلفة من أجل استمرار سفك الدماء واستنزاف الثروات، وكيف استدرجت العراق نحو الكويت من أجل القضاء على القوة العسكرية العراقية وإهدار الطاقات الاقتصادية العربية.

أغلب العرب والمسلمين على وعي تام بسياسات الغرب وبخاصة سياسات الولايات المتحدة، ولا تكاد تخلو مجالس عامة أو خاصة من الحديث عما يسميه الناس مؤامرات الغرب على العرب والمسلمين. لقد زرعت السياسات الغربية في المنطقة وعيا راسخا لدى أغلب الناس بالقهر والإذلال والاستغلال، وقدمت لهم أسباب تطوير هذا الوعي ونضوجه إلى الدرجة التي ينبثق معها في النهاية إلى ممارسات عملية. بمعنى أن السياسات الغربية قد حملت في داخلها نقيضها الذي يطور لدى أعدائها وعيا نظريا وعملا. فإذا كان للغرب من أعداء في منطقتنا فإنهم ليسوا من صنع المتدينين ولا من فعل التعاليم الإسلامية وإنما من فعل ممارسات تاريخية انقلبت على رؤوس أصحابها.

في هذا ما يُخرج مسألة التفجيرات من دائرة الفقه الإسلامي ليضعها في دائرة الفكر الإسلامي. ينظر الفقه الإسلامي في مسائل الحلال والحرام بينما ينظر الفكر في مسائل الحق والباطل. ومن حيث أن مسائل الحلال والحرام متعلقة بالسلوك ومسائل الحق والباطل بالنواميس الطبيعية والأسس العامة للمسارات التاريخية والعلمية فإن الحلال والحرام باقيان تحت جناح الحق والباطل ويصعب البت فيهما عند النظر في الكليات بمعزل عن الحق والباطل. يسهل تطبيق القواعد المباشرة للحلال والحرام عندما يتعلق أمر بجزئية مثل اعتداء شخص على ممتلكات شخص آخر، لكنه يصعب القفز إلى النتائج عندما يتعلق الأمر بالحدث التاريخي. على سبيل المثال، يفتي فقيه فلسطيني بتحريم سرقة ممتلكات يهودي يعيش في تركيا من قبل فلسطيني، لكننا نجده يتردد في الإفتاء حول سرقة الفلسطينيين لممتلكات أشخاص يهود في فلسطين. من الممكن على الأقل أن نقترب من الإجماع حول الأولى وأن نختلف كثيرا حول الثانية. وهذا ينطبق على العمليات الاستشهادية التي يقوم بها فلسطينيون ضد أهداف صهيونية. أفتى بعض البعيدين عن المسرح بتحريمها، بينما أفتى أغلب القريبين منه بجوازها. أفتى الفريق الأول بناء على منطق الحلال والحرام بينما أفتى الفريق الثاني بناء على منطق الحق والباطل والمتعلق بالظلم التاريخي المستمر الذي يلحق بالشعب الفلسطيني.

طبعا هذه مشكلة كبيرة تواجه المسلمين الآن وتضع بصماتها على تخلف الفكر الإسلامي. هناك فيض فقهي مقابل ندرة فكرية مما يؤدي إلى تحويل المسلم إلى مجرد مطبق لقواعد صماء معزولة إلى حد كبير عن محيطها الجغرافي والثقافي والسياسي والاجتماعي والتاريخي. تلقي هذه المشكلة بظلها على الجدل القائم حول ابن لادن وتنظيم القاعدة، ومن شأنها أن تبقي المسلمين في انفصام عن وعيهم التاريخي وضمن نظرة رومانسية إلى الدين الإسلامي. ومن شأنها أيضا أن تضع الفقهاء المتعاملين معها تحت طائلة ذات الاتهامات التي يوجهونها لابن لادن.

هل يتجاوز المرء مسألة حرام وحلال لصالح الحق والباطل؟ في قصة سيدنا موسى مع سيدنا الخضر ما يجيب على ذلك. وهل يجيز الإسلام إغفال الحق والباطل لصالح حلال وحرام فيبقى المسلم معذبا تحت طائلة الظلم خشية المساس بابن من يظلمه؟ هل يجوز للمسلم أن يستمر في ابتلاع الظلم محجما عن الانتقام لنفسه خشية الوقوع في حرام؟ أليس للمسلم أن يختار إذا وجد

نفسه أمام حرامين؟ إنه أمام حرام يتمثل بالقبول بالظلم وأمام آخر قد يوقعه بإثم ناجم عن الانتقام أو محاولة رد الظلم، فأيهما يختار؟ وأي رجلي الدين على حق: ذلك الذي يعمل على ردع الظالم الممعن في ظلمه أم ذلك الذي يريد الردع بالموعظة والابتهال؟ أنا لا أدعو هنا إلى شيء وإنما إلى ضرورة الارتقاء بالفكر الإسلامي حتى لا نبقى سذجا نبتلع الأهواء المزخرفة برونق ديني.

إنه من مصلحة الولايات المتحدة ومن مصالحنا ومصالح الحكام العرب والمسلمين أن نقف على الحقيقة كما هي دون زيغ أو طغيان. حدث الولايات المتحدة ليس من صنع الإسلام وإنما من صنع الولايات المتحدة نفسها. لقد قدمت الولايات المتحدة عبر السنوات لما يمكن أن يؤذيها وهي بالتالي تحصد ما زرعت، وكذلك الأمر بالنسبة لحكام العرب والمسلمين الذين لا يمكن أن يفلتوا من حصاد ما تزرع سياساتهم. وحتى نختصر الآلام على أنفسنا دولا وشعوبا وحكاما تبقى مواجهة الحقيقة من الفضائل العظيمة. فبدل الهروب إلى رجال فقه ربما يخشون دوائر المخابرات أكثر من خشيتهم من الله سبحانه وتعالى، من الأفضل السعي وراء الحقيقة حتى لا يفاجئنا الحدث فندفع جميعا ثمنه. لقد آلمني الحدث في أمريكا على المستوى الشخصي، لكن مشاعري الشخصية كما هي مشاعر غيري لا ترسم مسار التاريخ ولا تستطيع التعبير عن نفسها بموضوعية.

هناك من يقول أنه كان بالإمكان التأثير على سياسات الولايات المتحدة بطريقة لا تؤذي الإسلام والمسلمين. هذا صحيح، لكن طريقة تفكير المنهمك في رد الأذى أو الانتقام لا تتوافق في الغالب مع تفكير المسترخي. وربما ينطبق القانون الفيزيائي لكل فعل رد فعل على العلاقات بين الناس مع بعض التعديلات المتناسبة مع العلوم الاجتماعية. فقط نستطيع كمسلمين أن نكون صادقين مع الولايات المتحدة حتى لا تستمر في سياسات ظالمة تأتي علينا وعليها بالويلات. وبدل الانهماك فيمن يمثل الدين ومن له الحق أن يفرض نفسه على الدين الإسلامي بالإمكان أن ننقل إلى الولايات المتحدة رسالة الإسلام القائلة بأن الظالم يقع بظلمه وأن العدل خير وسيلة للتحصين.